نظريات العلماء المسلمين في نشأة اللغة

د. حازم سعيد يونس البياتي

الأستاذ المشارك في كلية التربية والعلوم الأساسية

شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

اللغة ظاهرة إنسانية، فالإنسان وحده من بين مخلوقات الله، قادرٌ على استخدامها، وقد قالوا في تعريف الإنسان: إنّه حيوان ناطق، أمّا أدوات الاتصال عند الحيوان فمختلفة تماماً وتعبّر عن نوع من الاستجابات الغريزية لمؤثّرات خارجية، يصدرها الحيوان عن عدم وعيّ لمعناها. وأكّدت الدراسات الحديثة أن الإنسان يولد مزوداً بملكة تُعينه على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة.

واللغة ظاهرة اجتماعية لا تُرى إلاّ حيث تُرى المجتمعات الإنسانية، وقد قيل في تعريفها: «أصواتٌ يُعبّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[1]، تستخدم في التواصل بين جماعة من الناس، ويمكنها أن تصنف بشكل عام الأشياء والأحداث والعمليات في البيئة الإنسانية.

وليست اللغة صفة بيولوجية ملازمة للإنسان؛ بل إنها ظاهرة إنسانية مكتسبة، ونتاجٌ للذكاء الإنساني[2].

لقد بدأ الإنسانُ في عصور مبكرة يفكّر بالحقيقة اللغوية، إذ لا يمكن تصوّر جماعة من غير لغة؛ لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، ومتعاون مع غيره، ووسيلته إلى ذلك اللغة.

واللغة المنطوقة قديمة قد ترجع إلى مليون عام تقريباً، وليس لدينا من نصوصها أو شواهدها ما يرجع إلى أبعد من خمسة آلاف عام قبل الميلاد، ولكن هذا لم يثن الباحثين عن البحث في بدايات اللغة الإنسانية.

وبالطبع لا يمكن أن تكون اللغة قد ظهرت كما نعرفها اليوم بنظُمها المتعددة، فمن المقرر أنّ اللغة لم تنشأ دفعةً واحدةً وإنّما ظهرت بشكل بسيط، ثم تطوّرت بتطوّر الإنسان، ولكن كيف كانت البداية؟[٣]

متى ظهرت اللغة؟

لا نعرف على وجه التأكيد وقت ظهور اللغة، وإن كان من المحتمل ظهورُها في وقت مبكّر جدّاً يزيد على مليون عام، وليس لدينا دليل مباشر يؤكّد هذه الفرضية، ولكن يبدو من المحتمل أن اللغة ظهرت في الوقت الذي ظهرت فيه الأدواتُ المصنوعةُ والأشكالُ المبكّرة للتعاون بين البشر.

في ذلك الوقت يمكن القول إن اللغة الإنسانية قد ظهرت، فاللغة إذاً قد نشأت في أحضان المجتمع، لقد وجدت اللغة يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم[٤].

اللغة الإنسانية الأولى:

هل ظهر الإنسان في مكان واحد ثم انتشر بعد ذلك؟ أم ظهر في أماكن متعددة؟ وينبني على هذا سؤال، وهو: هل ظهرت لغات متعددة أم لغة واحدة ثم تفرّقت واختلفت فيما بعد؟

ليس ثمّة إجابة مقنعة عن هذا السؤال أو ذاك، وغاية ما نقول إن العلماء ذهبوا في تفسير ذلك مذاهب شتّى، ولم يُجمعوا على رأي فيه، على الرغم مما بذلوه من جهود لأجل ذلك؛ لأنه بحث في أمر غيبي لا نعثر فيه على وقائع مادية ملموسة تُعيننا على تقرير حقائقه، ولذلك فإن ما قيل إمّا يعتمد على الخيال، وإمّا أن يُحاول كل مفكّر استنباط الأحكام من اللغات المعاصرة له، وهذه اللغات تعكس مرحلة متقدمة من مراحل رُقيّ الإنسان وتقدّمه[٥].

لذلك قرّر علماء اللغة صرف النظر عن هذا الموضوع لأن البحث فيه يعتمد على المناقشات الفلسفية أكثر من اعتماده على الحقائق اللغوية؛ لأن الإنسان الأوّل لم يترك لنا آثاراً مدونة نستدلّ بها على لغته وحياته.

وقديماً شعر ابن جنّي بدقة البحث فيه بقوله:

«هذا موضوع مُحْوِجٌ على فضل تأمّلٍ»[٦].

وكذا ابن السُّبكي (ت: ٧٧١ هـ) الذي نقل عنه السيوطي قوله:

«الصحيحُ عندي أن لا فائدة لهذه المسألة»[٧].

إن الجمعية اللغوية في باريس قرّرت عام ١٨٧٨م إخراج مسألة أصل اللغة من مجال البحث اللغوي، ومنْعَ تقديم أبحاث في هذا الموضوع[٨].

ذكرنا أن البحث في نشأة اللغة قديمٌ ممتد في أعماق التاريخ. فقد حاول أحد ملوك الفراعنة (بسماتيك) أن يثبت أن المصرية أقدمُ اللغات في العالم، فعزل طفلين في كوخ مع خادمٍ أمره ألاّ ينطق بأيّ كلمةٍ في حضورهما، وحين بلغ الطفلان مبلغ الكلام طلبا من الخادم الطعام قائلين (باكوس) ومعناها (الخبز) في إحدى لغات العالم القديم، فخاب ظنّه ووضح من تجربته أن المصرية ليست أقدم لغات العالم[٩].

وكرّر الملك (جيمس) الخامس ملكُ اسكتلندا (١٤٧٣ ـ ١٥١٣م) قصة (بسماتيك) غير أن محاولته وصلت إلى نتائج مختلفة، إذ كانت الكلمات التي نطق بها الأطفال الاسكتلنديون من العبرية[١٠].

ولا يعوّل العلماء على هاتين التجربتين، ولا يبنون عليهما أيّ مواقف لاختلاف النتائج.

وامتاز الإغريق الأقدمون بعمق نظراتهم في اللغة، فقد قرّر هرقليطس أنّ الأسماء تدلّ على مسمّياتها بالطبيعة لا بالتواطؤ والاصطلاح، وأن هذه الأسماء قد أُعطيت من لدن قوّة إلهيةٍ لتكون أسماء لمسمّياتها، وسُمّيت هذه النظرية بالتوقيفية.

أمّا ديمقريطس، فقد عدّ منشأ اللغة عملية تواطؤية، وانتهى إلى أن الأسماء تُعطَى للأشياء من لدن الإنسان لا من قوّة إلهيةٍ. وسمّيت هذه النظرية التواطؤية.

ولم يأت أفلاطون بشيء جديد سوى محاولته التوفيق بينهما[١١].

ومن الطريف أن الذين تحدّثوا في هذا الموضوع غلبت عليهم نزعاتهم القومية واعتزازهم بتراثهم الأثيل، ممّا أدّى بهم الأمرُ إلى الإعجاب بلغتهم إعجاباً تجاوز الحدّ المعقول. فهناك عالم سويدي يزعم أن آدم كان يتكلّم السويدية، وأنّ الحيّة التي أغرت حوّاء بأن تأكل من الشجرة المحرّمة كانت تتكلم الفرنسية، ويتعصّب أحد الباحثين الألمان للغته ويقرّر أن لغة آدم كانت الألمانية، وبعض الباحثين يزعم أنها كانت الآرامية التي كان يُتحدَّث بها في بيت المقدس في عهد المسيح، بل إن بعضَهم يزعم أن اللغة الصينية هي أقدم اللغات[١٢].

وتذكر المصادر العربية أن لغة آدم كانت العربية، يقول عبد الملك بن حبيب: كان اللسان الأول الذي نزل به آدمُ من الجنّة عربيّاً، إلى أن بَعُد العهد وطال، حُرِّفَ وصار سُريانيّاً[١٣].

وفكرة أن كلّ اللغات من مصدر واحد موجودة في التوراة ففيها إشارة إلى نشأة اللغات. ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين نقرأ في قصة بابل أنّ الأرض قبل الطّوفان كانت (كلّها لساناً واحداً ولغةً واحدة) وأنهم في ارتحالهم شرقاً وجدوا بقعة في أرض (شنعار) وسكنوا هناك، وبنوا مع أبنيتهم برجاً عالياً، ثم يتحدّث عن تبدّدهم وبلبلة ألسنتهم، فلم يعد أحد منهم يفهم الآخر[١٤].

وقد ظهرت هذه الرواية في بعض المصادر العربية إذ جاء في لسان العرب[١٥]: والبلبلة : بلبلة الألسنة، وقيل سمّيت أرض بابل؛ لأن الله

تعالى حين أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحاً فحشرهم من كلّ أُفق على بابل، فبلبل الله بها ألسنتهم ثمّ فرّقتهم تلك الريحُ.

وزعم العبرانيون أن العبرانية هي اللغة الأولى، وأنَّ الله قد علّم آدمَ هذه اللغة، وهم يبنون دعواهم على ما جاء في التوراة.

ونرى السيوطي[١٦] ينقل عن ابن عساكر في تاريخه رواية قريبة عما ورد في التوراة.

نظريات نشأة اللغة:

للغويين المسلمين آراء في نشأة اللغة، بعضها يعتمد على النقل والأخبار والتسليم بهما، وبعضها يعتمد على تفكيرهم الذاتي المؤدّي إلى تكوين وجهة نظر عقلية خاصة بهذا الموضوع. وبعض هذه الآراء يؤيدها الفكر اللغوي الحديث، ممّا يجعلنا أكثر اعتزازاً بتراث أسلافنا.

ودارت بحوثهم في نشأة اللغة على ثلاثة محاور، تبيّن لنا مدى تصورهم لهذه المشكلة:

أولاً: نظرية التوقيف أو الوحي والإلهام:

تقرّر هذه النظرية أن اللغة إلهام من عند الله تعالى، ألهمها الإنسانَ فتعلّمَ النطق وأسماء الأشياء، وليست من وضع البشر.

وذهب إلى هذا الرأي من الفلاسفة اليونانيين (هرقليطس) وبعض علماء اللغة الهنود الذين رأوا أن اللغة قديمة، وهي هبة إلهية وليست من صنع البشر، وأنّ المعنى الأساسي للفظ لم يأتِ عن طريق الاصطلاحِ، وإنما عن طريق الإله[١٧].

أما علماء اليهود فقالوا بالتوقيف اعتماداً على ما جاء في التوراة: «وجبل الربُّ الإلهُ من الأرضِ كلّ حيوانات البريةِ وكلُّ طيورِ السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكلَّ ما دعا به آدمُ ذاتَ نفس حيّةٍ، فهو اسمها، فسمّى آدمُ جميعَ البهائمِ وطيورِ السماءِ وجميعَ حيوانات البريّة»[١٨].

وقد قال بهذه النظرية طائفة من العلماء المسلمين لغويّين ومفسّرين معتمدين على فهمهم لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[١٩].

وعلى رأس هؤلاء أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥ هـ) الذي عقد في كتابه "الصاحبي"[٢٠] باباً عنوانه: «القول على لغة العرب أتوقيفية أم اصطلاحية»، وقرّر في هذا الباب بأنّها توقيفية معتمداً على الآية المذكورة، واجداً في بعض الآثار الإسلامية سنداً لذلك، وهو ما روي عن عبد الله بن عبّاس من أنه كان يقول في تفسير هذه الآية الكريمة: «علّمه الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناسُ من دابّةٍ وأرضٍ وسهلٍ وجبلٍ وجملٍ وحمارٍ، وأشباه ذلك». كما وجد فيما رُوِيَ عن مجاهد بن جبر المكيّ (ت: ١٠٣ هـ) ـ وهو من

تلاميذ ابن عباس ـ سنداً لما ذهب إليه، وهو أن مجاهداً قال: علّمه اسم كلّ شيءٍ[٢١].

على أنّ هناك خلافاً في ماهية هذه الأسماء بين القائلين بالتوقف، فمنهم من قال: علّمه أسماء جميع الأشياء، وهو رأي ابن عبّاس ومجاهد ـ الذي أشرنا إليه سابقاً ـ وقتادة كما نقله الطبري في تفسيره[٢٢]، ورأي جعفر الصادق[٢٣] ـ رضي الله عنهم جميعاً.

وذهب من المعتزلة أبو عليّ الجبّائي (ت: ٣٣٠ هـ) وعلي بن عيسى الرُّمّاني (ت: ٣٨٤ هـ) وغيرُهما إلى أنّه تعالى علّم آدمَ أسماءَ الأشياء كلَّها ما خلقَ وما لم يخلقِ، بجميع اللغات التي يتكلّم بها أولاده بعده .. فأخذ عنه أولادُه اللغات، فلّما تفرّقوا تكلّم كلّ قومٍ بلسانٍ ألِفوه واعتادوه وتطاول الزمان على ما خالف ذلك فنسوه، وقيل: علّمه أسماء الملائكة وأسماء ذرّيته. وقد روي ذلك عن التابعيين: الربيع بن أنس وعبد الله بن زيد[٢٤].

وهذا الرأي الذي يفسّر الأسماء في الآية بمعنى الأعلام، هو ما يراه الدكتور إبراهيم أنيس[٢٥] ملائماً ومسايراً لأحدث ما ينادي به اللغويّون في عصرنا الحاضر.

على أن ابن فارسٍ لم يكتفِ بالدليل النقليّ، بل يحاول أن يجدَ لرأيه أدلةً عقليةً، هي قوله:

١ ـ إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب، مما يختلفون فيه أو يتّفقون، واحتجاجهم كذلك بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضعة

واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منْ في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا واتّفقنا اليوم على لغة معينة نحدثها ونتواضع عليها[٢٦].

٢ ـ لم يبلغ أهل عصره أن قوماً من العرب في زمانٍ يُقارب زمانهم ذاك، قد اجتمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه بحيث يمكن الاستدلال بذلك على اصطلاح كان قبلهم. وقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم الفصحاءُ من النظر في العلوم المتنوعة ما لا خفاء به، ومع ذلك لم نسمع أنهم قد اصطلحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تتقدّمهم[٢٧].

واحتجَ آخرون غيرَ ابن فارس على التوقيف في نشأة اللغة بنصّ قرآني آخر، فقالوا: إن الله تعالى ذمّ قوماً في إطلاقه أسماءً من عندهم، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٢٨]. فقال هؤلاء وذلك يقتضي كونَ بقية الأسماء توقيفيةً، وهي تلك الأسماء التي لم يسمّوها[٢٩].

واحتجّوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[٣٠]. فقالوا: إن الألسنة بمعنى الأعضاء ليست المرادة في الآية؛ لأنها لا تختلف. فالمراد بها (اللغات) من حيث إنَّ اللفظ مشترك بين اللسان العضو واللسان اللغة[٣١].

ورأوا أنَّ اختلاف اللغات من فعل الله ووحيه. وكأنهم لحظوا في هذا أنّ اختلاف الألسنة قد ورد في سياقٍ واحدٍ مع آيات الله وعلامات وجوده المتمثلة في خلق السموات والأرض، وتباين الألوان في البشر،

فجعلوا اختلاف الألسنة هذا الحكم نفسه، وجعلوها من خَلْقه وتوقيفه ووحيه[٣٢].

وقد بسط السيوطي الردّ على هذه الآراء في كتابه: المزهر[٣٣].

ووجدنا الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) آمن بهذه النظرية وأخذ بها في رسالة مناقب الترك[٣٤]. وكذلك ابن جنّي في أحد أقواله حيث ذكر انه بعد بحث وتنقير قد قوي في نفسه اعتمادُ كونها توقيفاً من الله سبحانه وتعالى، وأنّها وحيٌ[٣٥].

ثانياً: التواضع والاصطلاح:

مفاد هذه النظرية أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع عليها وارتجال ألفاظها ارتجالاً.

وهي نظرية قديمة ذهب إليها من فلاسفة اليونان القدامى ديمقريطس[٣٦]، وأرسطو بقوله: «إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية وأنّ أصواتها رموز اصطلاحية لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها مع المعاني»[٣٧]. وأشار الهنود الأوائل إلى ذلك في واحد من آرائهم في نشأة اللغة[٣٨].

وذهب إلى هذا المذهب طائفة من اللغويين المسلمين منهم: ابن جنّي الذي عقد فصلاً في كتابه "الخصائص"[٣٩]، سمّاه: القول على أصل اللغة أ إلهام هي أم اصطلاح؟ ذهب فيه إلى القول: «وأكثرُ أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح»، وبيّن فيه فهمه لقوله

تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، فذكر أنّ الله تعالى خلق لآدمَ القدرة على استخدام اللغة ووضعها.

وإلى هذا الفهم لهذه الآية الكريمة ذهب السيوطي بقوله: «لِمَ لا يجوز أنْ يكون المرادُ من تعليم الأسماء الإلهامَ إلى وضعها؟»[٤٠].

وهذا الفهم للآية الكريمة يتّفق مع ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة[٤١] من أن الإنسان يولد مزوّداً بملكة على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة من عمره، وهذه الملكة تمكّنه من تلقي لغة المجتمع الذي يعيش فيه، فإذا عاش في مجتمع عربيّ تلقّى العربية، وإذا عاش في مجتمع فرنسي تلقى الفرنسية، ولا صلة لهذه القدرة بالجنس الذي ينتمي إليه الإنسانُ.

وهذا يعارض ما يراه اللغويون العرب القدامى من أنّ السليقة مرتبطة بالجنس والوراثة، أي: أنه لا يُتصوَّر أن يسيطر على اللغة العربية غيرُ العربيّ، كما أنّه لا يمكن أن يتقنها إتقان العربي لها، وهم بذلك كأنّما تصوّروا أنَّ هناك أمراً سحريّاً هو سر السليقة، ذلك هو الجنس، فكأنّ الأمهات يُرْضعْنَ السليقة في ألبانهنَّ، وكأنَّ السليقة تتّصل اتصالاً وثيقاً برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودِمنهم[٤٢].

ويلخّص ابن جنّي عملية المواضعة وآليّتها بقوله: «كأنْ يجتمع حكيمان أو ثلاثة فأكثرُ، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء التي في الكون، فيضعون لكل شيءٍ سمةً تسمّيه وتبيّنه، ولِتُغني تلك السمةُ عن ذكرها من إحضاره أمام العين لرؤيته أمام العين، فكأنّهم جاؤوا

إلى واحد من بني آدم فقالوا: إنسان، إنسان، إنسان، .. فإذا سمع هذا اللفظ في أيّ وقت عُلِم أنَّ المرادَ به هذا المخلوق»[٤٣].

غير أنّ ابن جنّي يبدو متردّداً بين هذا الرأي والرأي الأول ـ التوقيف ـ بقوله: «وأعلمُ فيما بعدُ، أنني على تقادم الوقت، دائمُ التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعي والخوالجَ قوية التجاذب لي .. فقوِيَ في نفسي اعتقادُ كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحيٌ»[٤٤].

وبقوله: «أكثر أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح لا وحيٌ وتوقيف»[٤٥].

وممن يُنسب إليهم القول بالمواضعة أبو هاشم الجُبّائي المعتزلي (ت: ٣٢١ هـ)[٤٦]، والراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٣ هـ)[٤٧]، وابن خلدون (٨٠٩هـ)[٤٨].

ومن الأدلة التي قدّمها القائلون بالاصطلاح لتعزيز وجهة نظرهم أنّ اللغات لو كانت توقيفية لتقدّمت بعثة الأنبياء على اللغة، ولكن هذا لم يحدث، بل الذي حدث العكس، وهو تقدّم اللغة على بعثة الأنبياء، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾[٤٩].

وثمّة من حاول ـ بالإضافة غلى ابن جنّي ـ الجمع بين الوجهتين والتوفيق بين الرأيين، فقال بالتوقيف، ولم ينكر الاصطلاح، منهم: سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت ٢١٠ هـ)[٥٠]، وأبو علي الفارسي (ت: ٣٧٤ هـ)[٥١]، وأبو إسحاق الإسفراييني (ت: ٤١٨ هـ)[٥٢].

وتبنّى فكرة المواضعة هذه في العصر الحديث آدم سميث، وروسو من خلال نظرية العقد الاجتماعي التي تقول: إنّ اللغة مظهر من مظاهر التعاقد الاجتماعي بين الناس[٥٣]، وأنّ الناس اجتمعوا في القديم لوضع لغةٍ والاتفاق عليها.

بيد أنّ هذه النظرية لا تصلح لبيان نشأة اللغة، لأن اجتماع الحكماء لوضع اللغة يقتضي وجود لغة يتفاهمون بها. يقول السيوطي: «إنّ اللغة لو كانت اصطلاحاً لاحتيج للتخاطب بها إلى اصطلاح آخر، لغوي أو خطّي، يعود إليه الكلام»[٥٤].

ثالثاً: نظرية المحاكاة (المناسبة الطبيعية):

تذهب هذه النظرية إلى أنّ النشأة الأولى للألفاظ لا تعدو تقليد الأصوات التي في الطبيعة، سواءٌ التي صدرت عن الإنسان أم الحيوان أم الأشياء، فهي تسمّي الأشياء بأسماء مشتقّة من أصواتها، كخرير الماء، وصهيل الفرس، وحفيف الريح. وهذا معناه أن لألفاظ اللغة دلالة ذاتية.

والظاهر أنها نظرية قديمة بالرغم مما توحي به من حداثة يتطلّبها العلم اللغوي الحديث، فقد ذهب إليها كثير من فلاسفة العصور القديمة.

ونسب هذا الرأي إلى عبّاد الصيمريّ (ت: ٢٥٠ هـ)[٥٥] مت معتزلة أهل البصرة، إذ يُعدّ أقدمَ القائلين بها.

ولخّص ابن جنّي هـذه النظريـة بقولـه: «وذهـب بعضـهم إلى أن أصـل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات كـدوي الرعـد، وخريـر المـاء، ونعيـق الغـراب، وصـهيل الفـرس، ونزيـب الظبي، ونحـو ذلـك. ثـم وُلِـدَت اللغـات عـن ذلـك فيمـا بعـدُ، وهـذا عنـدي وجـهٌ صـالحٌ ومـذهب متقبّل»[٥٦].

وهـكذا نرى ابن جنّي يتنقّل بـين النظريـات الثلاث، لا يـدري بأيِّهـا يتمسّك مع أن كل واحدة منها تتميّز بطابع خاص.

ومما يؤخذ على هـذه النظرية أنهـا تعجـز عـن أن تفسّـر لنـا كيفيـة نشـوء الكلمـات الكـثيرة للأشـياء الـتي لا تُصـدر أصـواتاً، أو للأمـور المعنويـة الـتي لا وجـودَ ماديـاً لهـا في الخـارج، كالصـدق والحـب والوفـاء والعقيدة والعدل.

لهـذا لم تلـقَ رواجـاً في الأوسـاط اللغويـة الإسـلامية، وكـان هنـاك شـكٌّ فيهـا وتوقّـفٌ في الأخـذ بهـا، حتـى إنّ السـيوطي قـال: «والمحقّقـون متوقّفـون في الكـل، إلا مـذهبَ عبّـادٍ، ودليـل فسـاده أن اللفـظ لـو دُلَّ بالـذات لفهـم كـلُّ واحـدٍ منهم كـلَّ اللغـات، لعـدم اخـتلاف الـدلالات الذاتية، واللازم باطلٌ، فالملزوم كذلك»[٥٧].

ويمتـاز مـذهب المحاكـاة ـ كمـا يقـول أسـتاذنا الـدكتور حـاتم الضـامن ـ بأنـه يشـرح لنـا مبلـغ تـأثر الإنسـان في النطـق بالألفـاظ بالبيئـة التي تحيط به، غير أن أهم ما يؤخذ عليه أنه يحصر أساس نشـأة اللغـة في الملاحظـة المبنيـة علـى الإحسـاس بمـا يحـدث في البيئـة، ويتجاهـل

الحاجة الطبيعية الماسّة إلى التخاطب والتفاهم والتعبير عما في النفس، تلك الحاجة التي هي أهم الدوافع إلى نشأة اللغة الإنسانية[٥٨].

ومن المحدثين الذاهبين إلى هذا الرأي العلاّمة وتني[٥٩] من الغربيين، ومصطفى صادق الرافعي[٦٠]، والدكتور إبراهيم أنيس[٦١]، والدكتور علي عبد الواحد وافي من العرب.

يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: «وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأقربُها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور، وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية»[٦٢].

وبعد، فهذه دراسة مبسوطة في النظريات التي تناولت نشأة اللغة من منظور الثقافة الإسلامية، وما وجّه إليها من نقد، وكلّ منها تناول جانباً من اللغة، غيرَ أنها لم تقدّم الحلَّ الأمثل لأنها غَدَتْ من المسائل التي لا تخضع للبحث العلمي السليم، فليست كلُّها إلا فروضاً لتناولها مدّةً من عمر الإنسان موغلةً في القِدَم، لم يترك فيها إنسان تلك المرحلة آثاراً مدوّنة يمكن الاعتماد عليها للوصول إلى نتائج أقرب إلى الصواب.

وسبق لأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) أن تنبّه إلى هذه المسألة، ونصّ على غموضها وصعوبة البتّ في أمرها بقوله: «لا يبقى إلا رجمُ الظنّ في أمرٍ لا يرتبط به تعبّدٌ عمليّ، ولا تَرْهَقُ إلى اعتقاده حاجة، فالخوض فيه إذاً لا أصل له»[٦٣]. أي: لا موجبَ له.

الهوامش:

١. الخصائص ١/٣٣.

٢. الألسنية ولغة الطفل العربي / ٢٤.

٣. الأفكار السابقة مأخوذة من: مدخل إلى اللغة / ١٠ ـ ١٣.

٤. مدخل إلى اللغة / ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

٥. علم اللغة ـ سويد ، ومصطفى/١٧.

٦. الخصائص ١/٤٠.

٧. المزهر ١/٢٦.

٨. فقه اللغة في الكتب العربية /٧٧.

٩. فقه اللغة، الزيدي / ٣١.

١٠. مدخل إلى اللغة/٢٨٧.

١١. دراسات في فقه اللغة /٤٧ ـ ٤٨.

١٢. مدخل إلى اللغة/٢٨٨، التطور اللغوي/١٣.

١٣. المزهر ١/٣٠.

١٤. فقه اللغة، الزيدي /٣٣.

١٥. لسان العرب ١/٤٩٣.

١٦. المزهر ٩/٣٢.

١٧. البحث اللغوي عند الهنود /٩٩.

١٨. سفر التكوين، الإصحاح الثاني ١٩.

١٩. البقرة، الآية: ٣١.

٢٠. الصاحبي في فقه اللغة/٣١.

٢١. الصاحبي في فقه اللغة ٣١ ـ ٣٢، وينظر: فقه اللغة، الزيدي ٣٤ ـ٣٥.

٢٢. جامع البيان ١/١١٥.

٢٣. تفسير العيّاشي ١/٣٢ ـ ٣٣.

٢٤. التبيان ١/١٣٨، مجمع البيان في تفسير القرآن ١/١٦٨. وينظر: فقه اللغة ـ الزيدي /٣٦.

٢٥. دلالة الألفاظ/٣٧.

٢٦. الصاحبي في فقه اللغة /٣١ ـ ٣٢.

٢٧. الصاحبي في فقه اللغة /٣٣ ـ ٣٤.

٢٨. النجم، الآية: ٢٣.

٢٩. المزهر ١/١٧. وينظر: فقه اللغة، الزيدي ٣٦.

٣٠. الروم، الآية: ٢٢.

٣١. المزهر ١/١٨.

٣٢. فقه اللغة، الزيدي ٣٦ ـ ٣٧.

٣٣. المزهر ١/١٩، ٢٥.

٣٤. رسائل الجاحظ ٣/١٩١. وينظر: علم اللغة، حاتم الضامن/ ٦.

٣٥. الخصائص ١/٤٧.

٣٦. علم اللغة، وافي/٩٠.

٣٧. علم اللغة العام، شاهين/٣٥.

٣٨. البحث اللغوي عند الهنود/١٠٠.

٣٩. الخصائص ١/٤٠.

٤٠. المزهر ١/١٨.

٤١. علم اللغة، سويد، ومصطفى/١٩، مدخل إلى اللغة/٣٥.

٤٢. فصول في فقه العربية ٩٥.

٤٣. الخصائص ١/٤٤.

٤٤. الخصائص ١/٤٤

٤٥. الخصائص ١/٤٠.

٤٦. فقه اللغة، الزيدي /٤١.

٤٧. فقه اللغة العربية، الزيدي /٤١.

٤٨. مقدمة ابن خلدون/٤٩٢.

٤٩. إبراهيم، الآية: ٤.

٥٠. الخصائص ١/٤٠ ـ ٤١.

٥١. الخصائص ١/٤١.

٥٢. المزهر ١/١٦.

٥٣. علم اللغة، سويد، ومصطفى/٢٠.

٥٤. المزهر ١/١٨.

٥٥. المزهر ١/١٦.

٥٦. الخصائص ١/٤٦ ـ ٤٧

٥٧. المزهر ١/١٦.

٥٨. علم اللغة، الضامن / ٩٧.

٥٩. علم اللغة، وافي /٩٥.

٦٠. تاريخ آداب العرب ١/٤٨.

٦١. دلالة الألفاظ / ٢١.

٦٢. علم اللغة، وافي /٩٦.

٦٣. المستصفى ١/١٤٥.

مصادر البحث

١. الألسنية ولغة الطفل العربي: جورج كلاّس، بيروت، ١٩٨١.

٢. البحث اللغوي عند الهنود، د أحمد مختار عمر، بيروت، ١٩٧٢

٣. تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، ١٩٤٠.

٤. التطور اللغوي التاريخي: د. إبراهيم السامرائي، ط٣، بيروت، ١٩٨٣.

٥. تفسير العياشي: تصحيح وتعليق: هاشم الرسوليّ المحلاّتي، المطبعة العلمية، قم.

٦. جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، طبعة بولاق، القاهرة ١٣٢٣هـ.

٧. الخصائص: ابن جنّي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، ١٩٥٢ - ١٩٥٦.

٨. دراسات في فقه اللغة: محمد الأنطاكي، ط٤، دار الشرق العربي، بيروت.

٩. دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، القاهرة، ١٩٦٣.

١٠. رسائل الجاحظ: تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٧٩.

١١. الصاحبي في فقه اللغة: ابن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة.

١٢. علم اللغة: د. حاتم الضامن، الموصل، ١٩٨٩.

١٣. علم اللغة: د. عبد الله سويد، د. عبد الله مصطفى، ط ١، ليبيا، ١٩٩٣.

١٤. علم اللغة: علي عبد الواحد وافي، ط ٧، القاهرة.

١٥. علم اللغة العام: د. توفيق محمد شاهين، القاهرة، ١٩٨٠.

١٦. فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب، ط٣، القاهرة ١٩٩٤.

١٧. فقه اللغة: د. كاصد الزيدي، الموصل ١٩٨٧.

١٨. لسان العرب: ابن منظور، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٦.

١٩. مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي، بيروت ١٩٦١.

٢٠. مدخل إلى اللغة: د. محمد حسن عبد العزيز، ط٣، الكويت ١٩٩٦.

٢١. المزهر: السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه، مطبعة البابي.

٢٢. المستصفى من علم الأصول: أبو حامد الغزالي، ط١، مصر ١٩٣٧.

٢٣. مقدمة ابن خلدون، القاهرة، ١٩٣٠